الالبانيين ، وهزمهم هم وحلفاؤهم من نابلى . ولكن اسكندر بك نجح في إثارة الالبانيين ، وعقد صلحا مع الاتراك ثم نقضه لأن البابا وعده بالمساعدة فحارب الاتراك إلى أن اضطر إلى أن يرحل إلى روما يطلب المساعدة والعون ، ولكنه مات فى أوائل سنة ١٤٦٨ و بذا استطاع الأتراك أن يخضعوا بقية البانيا بسهولة .

لقد كلف اسكندر بك الأتراك غاليا فى الفتح ، و إذا كان قد نجح فى شيء فلقد نجح فى تأخير فتح البانيا ، وأوقف مدة التيار التركى العنيف الذى ربما كان اكتسح إيطاليا .

بعد موت اسكندر بك سيطر السلطان محمد الثانى على البانيا تماما وطرد البندقية من ممتلكاتها الساحلية فبدأ انكماشها واضمحلالها .

فتوحات السلطان الفاتح فى آسيا

وأما فى آسيا فلقد كان نجاح السلطان محمد الثانى تاما . فاستطاع أن يقضى على بقايا الأغريق فى آسيا الصغرى ، فاستولى على سينوب وطربزون . وكان لطربزون امبراطور أغريقى ليست له إلا المدينة وضواحيها فحاول تقوية مركزه بالاتفاق مع أوزون حسن الذى كان يسيطر على بعض اجزاء من أرمينيا والعراق وفارس . ولكن لما علم أوزون حسن بمجيء السلطان بجيش كبير طلب السلام وترك الأمبراطورية

obeikandl.com

الأغريقية فى آسيا الصغرى لتلقى مصيرها المحتوم . فلقد توجه السلطان إلى المدينة وحاصرها برا وبحرا ، وبعد فترة صغيرة سلمت المدينة فى سنة ١٤٦١ وبذا تلاشت دولة الأغريق نهائيا فى آسيا الصغرى ، وأصبح الأناضول تركيا إسلاميا لا سيطرة فيه للأغريق إلا فى فترة صغيرة تلت الحرب الأوربية الكبرى الأولى .

وأصبح للعثمانين السيطرة التامة على بحر مرمره وبحر الأرخبيل والبحر الأسود ، وخاصة بعد أن أرسل السلطان الصدر الأعظم لفتح بلاد القرم وتم له ذلك .

وأما فيما يختص بأمارة قرمان ، ففى سنة ١٤٦٣ مات أمير هذه البلاد ، وكان يدفع الجزية للسلطان محمد الفاتح . وترك ابناءاً سبعة اختلفوا فيما بينهم على وراثه الحكم ، فتدخل السلطان وقضى قضاء مبرما على استقلال هذه الأمارة فى سنة ١٤٧١ . وبذا أصبحت الأناضول عثمانية وانتهت نهائيا بقايا النظام السلجوقى القديم .

ولكن حدود العثمانيين الشرقية ما كانت آمنة أولا لغزو جنود التتار ثانيا لعداوة أوزون حسن السابق الذكر للعثمانيين ، فلقد حاول هذا الرجل نهب البلاد الواقعة على الحدد الشرقية ، وفعلا نجح فى ذلك فى إحراق بعض المدن الأخرى ، وهاجم قرمان ، فقابله الامير

obeikandi.com

مصطفى بن محمد الفاتح ، وأسر قائد الغزاة ، وكبله بالحديد وأرسله إلى ابيه ، وقامت وقائع أخرى كان النصر فيها حليف الأتراك أيضا . وحاول أوزون حسن هذا ، وقد أحس بالخطر على بلاده — فتح باب المفاوضات مع رودس والبندقية وطلب منهما إمداده بالمدافع وبعض رجال المدفعية ، وفعلا انجدته البندقية ، فعاد إلى غزو الحدود العثمانية ، ولكن قواته دحرت ، وهرب هو من ميدان القتال بحياته ، فعاد إلى الحدود الشرقية أمنها وسلامها .

على أن فتوحات محمد الفاتح وضعت أساس الخطة التى سيتبعها خلفاؤه فيما بعد ، فلقد أصبح للعثمانيين حدود غير مستقرة مع كل من مصر وفارس والمجر ، وكان لا بد من وقوع الاصطدام بين العثمانيين وهذه الدول عاجلا أو آجلا .

علاقة السلطان الفاتح

بجنوه والبندقية وإيطاليا .

كان لوجود العثمانيين فى أوربا وحلولهم محل الأغريق فى البلقان وفى القسطنطينية أثر كبير على علاقاتهم مع جنوه والبندقية .

لقد عمل السلطان محمد الثانى فعلا على المحافظة على العلاقات السلمية بينه و بين هاتين الدولتين أثناء حصاره لمدينة القسطنطينية ،

فلم يهاجم غلطه ، وهو مستعمرة جنوية مستقلة على حدود القسطنطينية ، ولكنه عندما انتهى من فتح مدينة قسطنطين طلب من الجنوبين هدم حصون غلطه وأسوارها وفرض عليهم الجزية مما عمل على سوء العلاقات بينه و بين جنوه .

وعلاقة السلطان السيئة مع جنوه هى التى دعته إلى التفكير فى القضاء على ممتلكاتها فى البحر الأسود . ولذا أرسل حملته المشهورة إلى بلاد القرم إلى ثغر كافا . كانت الحملة بقيادة الصدر الاعظم ومكونة من أسطول ضخم وأربعين ألف مقاتل .

وكانت مدينة كافا قوية وغنية ، فلقد كان يطلق عليها اسم القسطنطينية الصغيرة . ولم تستطع المدينة الوقوف أمام قوات السلطان العظيمة ، فسلمت بعد حصار أربعة أيام ، وكانت الغنائم والاسلاب كثيرة واصطفى السلطان محمد الثانى ألفا وأربعمائة من ابناء نبلائها للخدمة فى صفوف الانكشارية ، ثم استولى الأتراك على شبه جزيرة القرم كلها ، وأصبح خانات التتار فى هذه الاجزاء الواقعة فى شمال البحر الاسود تابعين للدولة العثمانية لمدة تقرب من ثلاثة قرون .

ولم تكن علاقة السلطان محمد الثانى بالبنادقة خيرا من علاقاته مع جنوه ، فلقد اصطدمته بقوات البندقية على سواحل بلاد الاغريق ،

وفي جزر بحر الأرخبيل ، وكانت نتيجة ذلك الاصطدام المسلح أن استولى العثمانيون على ايبوبيا ولسبوس ولمنوس وسفالونيا و بعض الجزر الأخرى .

و بعد أن استولى السلطان على البانيا والبوسنة والهرسك زاد اتصاله بممتلكات البندقية على الشاطىء الشرقى للبحر الأدريانى . وأراد السلطان الفاتح أن يعاقب البندقية على موقفها العدائى ازاءه فى كثير من الظروف ، فأرسل فى سنة ١٤٧٧ جيشا قويا إلى ممتلكاتها يحاول تهديد المدينة نفسها ، ففزعت البندقية وأقامت التحصينات المنيعة ، ولكن الاتراك اخترقوا كثيرا من هذه التحصينات وهزموا جنودها مرارا واكتسحوا بلادها إلى قرب المدينة ، وارتجف شيوخ المدينة فى قصورهم لهول الانباء التى وصلت إليهم ورأوا بأعينهم النيران تشتعل فى قراهم ، ولكن لحسن حظهم لم يكن السلطان الفاتح ينوى الاستيلاء على هذه المدينة ، ورجعت جنوده وسراياه محملة بالأسرى و بالغنائم الكثيرة .

ولذا أسرعت البندقية فعقدت صلحا مع السلطان محمد ، وتعهدت بأن تساعد السلطان بأسطول مكون من مائة سفينة إذا هاجمته دولة أخرى ، ووافق السلطان على أن يساعدها بمائة ألف جندى إذا هاجمها أعداؤها .

وكان السلطان محمد الثانى يفكر فى إخضاع إيطاليا ، ولكنه كان دائما يؤجل ذلك المشروع أولا لظروف العثمانيين الحربية فى البلقان ولعناد هونيادى واسكندر بك ، ولذا بعد ما اختفى هذا الخصمان من المسرح السياسى فى البلقان ، جهز السلطان محمد الفاتح الاستعدادات العظيمة البرية والبحرية ، وأحب أن يمهد لذلك بالاستيلاء على جزيرة رودس حتى لا تصبح شوكة فى جانب ممتلكاته العظيمة . وكانت فى يد فرسان القديس يوحنا الذين وطدوا مركزهم فيها فى أوائل القرن الرابع عشر ، وأصبحوا قوة مستقلة لا يستهان بها ولقد وصلت للسلطان معلومات عن هذه الجزيرة وعن حصونها ، ولذا أرسل مسيح باشا فى ابريل سنة ١٤٨٠ بقوة كبيرة مكونة من مائة وثمانين سفينة وجيش قوى ومدفعية كبيرة ، واستطاع الباشا أن ينزل فى الجزيرة ، واستولى على بعض الأماكن فيها ، وحاصر المدينة ، فدافعت عن نفسها دفاعا مشهودا ، وكادت تسقط لولا جشع الانكشارية وسوء سياسة القائد

لقد استطاع الأتراك بمدفعيتهم القوية إحداث ثغرات فى أسوار المدينة ، ورفع العلم العثمانى فعلا على الأسوار ، وكادت المدينة تؤخذ لولا أن أعلن مسيح باشا فى هذه اللحظة أن الغنائم كلها ستحفظ للسلطان ، ففت ذلك فى عضد المهاجمين وغضبت الجنود المهاجمة ،

obeikandi.com

ورفضوا مساعدة إخوانهم الذين اقتحموا الاسوار ، وانتهز المدافعون ذلك الخلل ، فردوا الفرق الاولى المهاجمة على أعقابها ، واضطر مسيح باشا إلى رفع الحصار والعودة ، وأنقذت رودس لمدة نصف قرن من الزمان .

وفى نفس الوقت الذى هاجم فيه الأتراك رودس أنزلوا جنودهم بقيادة بطل القرم إلى إيطاليا ، على شاطئ أبوليا ، وساروا نحو تارنتو ، وكانت تعتبر فى ذلك الوقت مفتاح جنوب إيطاليا ، فلم تستطع الوقوف طويلا أمام قوة الأتراك وسلمت فى أغسطس سنة ١٤٨٠ وقتل سكانها واستبيحت المدينة . فكانت هذة الحملة الحربية درساً قاسيا لايطاليا لتدخلها فى شئون البلقان ، وتهديداً لمركز البابوية فى إيطاليا ذاتها .

لقد وضع السلطان محمد الفاتح قدمه فى إيطاليا واستولى على ميناء صالحة لتوغل جنوده فى داخلها ، وأخذ فى تجهيز معدات عظيمة لاتمام مشروعه ، ولم يكن يعرف وجهتها الحقيقية غيره ، فلقد كان يحتفظ دائماً بسرية مشاريعه لنفسه ، ولكنه مات بغتة فى وسط جيوشه فى ٣ مايو سنة ١٤٨١ ، فانقذت إيطاليا من الخطر العثمانى .

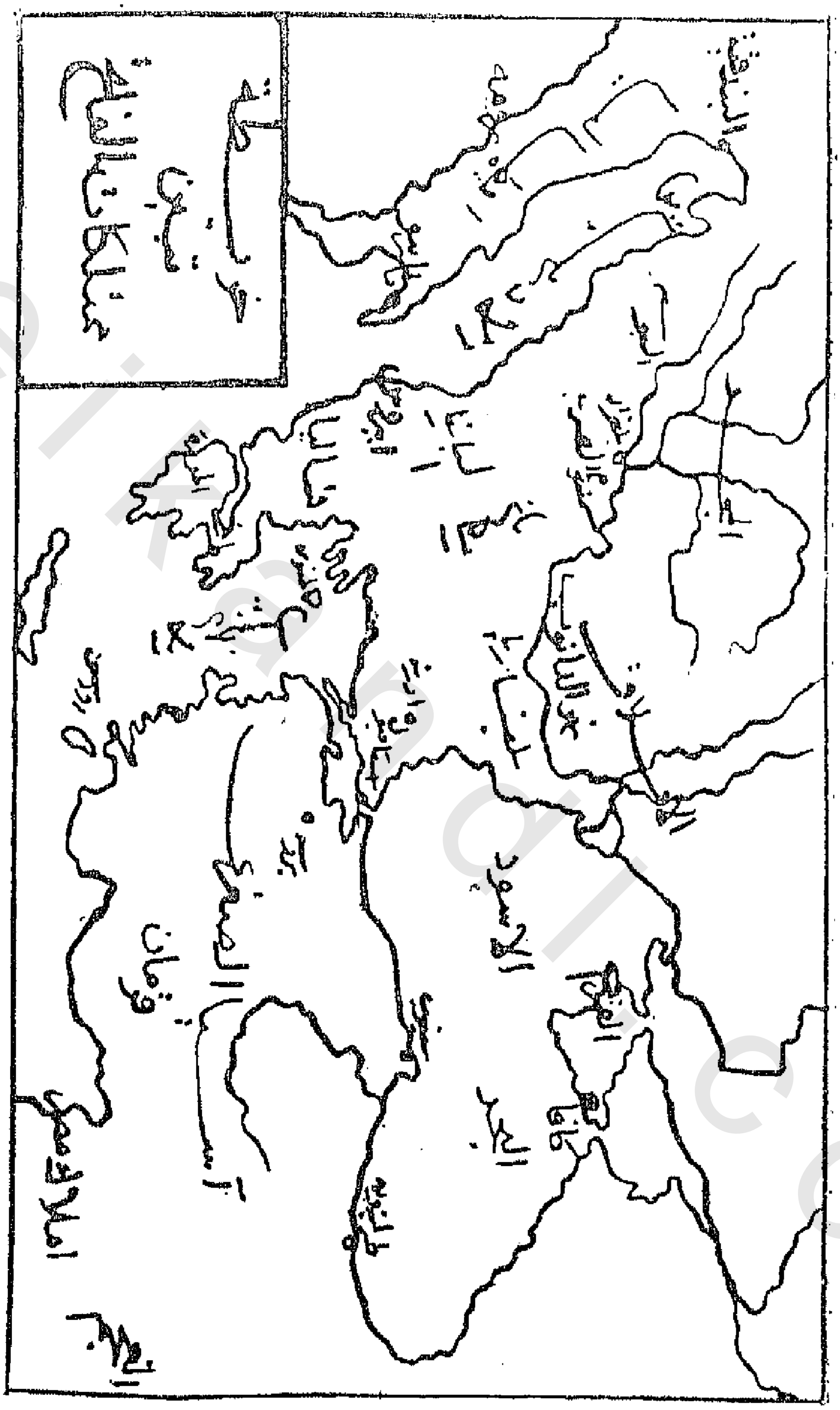

عصر الفاتح وتنظيماته

أنشأ السلطان محمد الثانى الفاتح دولة عظيمة ، هى غير منازعة أقوى الدول الكبرى فى القرن الخامس عشر، ووحدها أرضاً وشعوباً فأصبحت كتلة متماسكة تمتد من أعالى نهر الفرات إلى الأدرياتى، ومن البحر الأبيض إلى نهر الدانوب والقرم ، وأزال بقايا الدول التى كانت تجهد بغيش تاصب فى آسيا الصغرى أو تناوئ الأتراك العثمانيين فى البلقان ! واتخذ للأتراك عاصمة جديدة عظيمة لها تاريخ مجيد جميلة الموقع متوسطة المركز بين بلادهم الأسيوية وممتلكاتهم الأوربية ؛ تشرف على البر والبحر ، وتتفق مع ما أصبح للعثمانيين من مجد وقوة وجبروت ، ولم يعد بعد عهد الفاتح للأغريق ولا للبنادقة ولا للجنويين أو الأغريق أو الصرب قوة ولا ذكر فى البلقان إلى أن جاء القرن التاسع عشر . ومهدت فتوحات ذلك السلطان العظيم الطريق لفتوح العثمانيين التى سيقوم بها خلفاؤه فى الشام ومصر والعراق والمجر وأواسط أوربا .

كان السلطان الفاتح مصلحاً كبيراً ومنظماً من الطراز الأول ، كما كان رجل حرب من العبقريات النادرة التى شهدها التاريخ .

وكان رجل ثقافة واسع الاطلاع فى العلم والأدب يتذوق الشعر و يستلهم الفن ، كما كان طويل الباع فى الادارة والحكومة .

رتب السلطان الحكومة الجديدة لدولته العظيمة ، واستفاد من كل الظروف المحيطة به، واستلهم كل الحضارات التى ترك تراثها للعثمانيين فهو سلطان مسلم يحكم دولة واسعة الأطراف إسلامية قبل كل شئ ، ولكنه فى نفس الوقت جلس على عرش الأباطرة البيزنطيين فى مدينتهم وعاصمتهم فأصبح خليفة القياصرة كما حل محل الأمراء الكثيرين الذين كانوا يحكمون فى البلقان .

حكم السلطان الفاتح دولة تتكون من أجزاء مهمة فى شرق البحر الأبيض لها حضارات شرق البحر الأبيض ، حضارات امتزج فيها الشرق والغرب معاً ، وتقابلت فيها نظم سياسة مختلفة وقوانين وعادات متباينة ، وديانتان عظيمتان هما المسيحية والاسلام ، فكان لا بد من مراعاة هذه الحقائق جميعها والاستفادة منها فى إقامة صرح دولته الجديدة العظيمة .

اهتم محمد الثانى باصلاح النظام الداخلى للدولة ، وعنى قبل كل شئ بنشر الطمأنينة والسلام التركى فى امبراطوريته الواسعة التى تجمع عناصر كثيرة من خلائق يختلفون فى الجنس واللغة والدين والعادات ،

فبجانب الأتراك المسلمين وهم عمود الدولة الفقرى ، يوجد الأغريق والصقالبة على اختلاف أنواعهم والبلغار والألبانيون ، يوجد الأرثوذكس والكاثوليك ، عاش هؤلاء جميعا قبل الحكم العثمانى حياة اضطراب وفوضى لا يعرفون للأمن طعما ونسوا من زمن بعيد كل شئ عن الطمأنينة والاستقرار ، فلا بد إذن من وضع نظام قوى للحكم يعطى لهؤلاء ما فقدوه من حرية وراحة وسلام ، ولا بد من وضع نظام خاص لسكان الدولة من غير المسلمين ينظم العلاقات بينهم وبين جيرانهم من المسلمين ، بينهم وبين الدولة التى تحكمهم وترعاهم .

* * *

كان أول ما عنى السلطان محمد الثانى منذ أن تولى السلطنة العمل على استقرار العرش لأنه عرف من تجارب التاريخ العثمانى أنه على استقرار مركز السلطان يتوقف كل شئ فى الدولة ، تتوقف قوتها ونظمها ، رأى الخلل والاضطراب يلم بالدولة إذا ما برز المتنافسون على العرش وأوقدوا نيران الحرب الأهلية ، ولم يخف عليه ما عانته الدولة من حروب أهلية كادت تؤدى بحياتها فى عهد من سبقوه من السلاطين كما قرأ بنفسه قصة الانقسام والتفرق فى البلقان ، وما آلت إليه حال أهلها من ضعف واضمحلال ، ولذا عمل على استقرار مركز السلطان

openkandil.com

ولم يكن هناك قبل عهده قانون يحدد من يلى العرش العثمانى بعد وفاة السلطان فوضع السلطان الفاتح سنة جديدة ، وإن كانت تظهر للكثيرين سنة قاسية سيئة ، وهى أن السلطان الذى يلى الحكم له الحق فى قتل إخوته الباقين حتى لا ينازعه أحد منهم على العرش فى المستقبل فجعل بذلك قتل الاخوة سنة مشروعة ، ولكنه بررها أمام نفسه وأمام الناس بأن غرضه منها هو : « سلام الدنيا والعالم » فوجود الاخوة ، كما فهم هو من التاريخ العثمانى ، من العوامل التى تثير الفتنة بين المسلمين، فقتلهم أهون فى نظره من إثارتها .

وكان يرى أن يكون مركز السلطان محترما بين رجال دولته فكان من أعداء التبذل و إن كان من أنصار التبسط ، لم يسمح لأحد من رجال دولته بالجلوس على مائدته جعل ذلك قانوناً ، فوضع بذلك تقليدا هو ألا يكون للسلطان إلا صحبة ممتازة يأنس بها ، زمرة من رجال الدين والعلماء والفلكيين والأطباء ، فلم يكن للفاتح إذن اتصال برجال الدولة إلا حين تقضى بذلك أعمال الدولة و إلا إذا كان لهؤلاء الرجال صفات علمية أو أدبية أو فنية تتناسب وذوقه ، ولذا كان رجال الدولة بلا استثناء يرهبونه ويخشون جانبه و يخافون بطشه .

وليس معنى ذلك أن فاتح القسطنطينية لم يكن يختلط برجاله أو

بجنوده أو علمائه ففى أوقات الحرب أو الاستعداد لها كان دائم الاتصال بوزرائه قواده وجنوده يشرف عليهم بنفسه ، ويقوى من روحهم المعنوى ويمدهم ويمنيهم بكل ما يستطيع تنفيذه ، وفى أوقات السلم فى مجالسه الأدبية وحلقاته الشعرية كان يتبارى مع الأدباء والشعراء والعلماء فى تذوق الأدب وقول الشعر ونقد الكتب .

ولقد وضع السلطان محمد الفاتح قوانين الاتيكيت والحفلات فى الدولة العثمانية ، وهو بلا شك متأثر بالحياة الاجتماعية للأباطرة البيزنطيين وباتساع الدولة ودخول عناصر أجنبية غربية فيها ، فوضع بذلك أساس التشريفات فى القصر السلطانى العثمانى .

* * *

ووجه عنايته كذلك إلى قوانين الدولة ، فحاول تقنين الشرع واختار لذلك من العلماء الأجلاء من يستطيع القيام بهذه المهمة العظيمة ووضع قانون نامه ، وهذا القانون كما يقول هو « هو قانون أبائى وأجدادى سيعمل به خلفائى من بعدى من جيل إلى جيل » فحاول أن يقنن الأوامر والمراسيم التى أصدرها فى أوقات مختلفة السلاطين ممن سبقوه . ولم يكن هذا التقنين كاملا بأى حال ولكنه وضع الأساس .

openkandil.com

هذا القانون مكون من ثلاثة أبواب وهو يتعلق بمناصب الموظفين وبعض التقاليد وما يجب أن يتخذ فى التشريفات والاحتفالات، وهو يقرر كذلك العقوبات والغرامات .

ونظم السلطان الفاتح الحكومة الجديدة ، وساعده فى هذه الناحية الصدر الأعظم محمد القرمانى . وهذه الحكومة حكومة إسلامية قبل كل شىء قائمة على تفوق العنصر الإسلامى أيا كان أصله أو جنسه ، ولقد جعلها السلطان ترتكز على دعائم أهمها الوزارة والقضاء والمال .

أما من حيث الوزارة فلقد جعل الفاتح عدد الوزراء أربعة وجعل للصدر الأعظم قيادة الجيش ورياسة الديوان — وإن كان الفاتح قد اهتم بالأشراف على الأمور فى كثير من الأحيان بنفسه . أما من حيث النظام الأدارى ، فلقد أبقى السلطان النظام القديم بأدخال بعض تعديلات بسيطة فيه . وهذا النظام يقضى بتقسيم الدولة إلى ولايات للكبرى منها بايلر بايات (جمع بايلر باى) وللصغرى البكوات الصناجق وترك لبعض الأمارات الصقلبية فى أول الأمر بعض مظاهر الاستقلال الداخلى ، فكان يحكمها أمراء منها ، ولكنهم تابعون للدولة ينفذون أوامر السلطان بكل دقة ، وهو يعزلهم ويعاقبهم إذا خالفوا أوامره أو فكروا فى الثورة على حكومته .

ولقد اهتم السلطان الفاتح اهتماما خاصاً بالجيش ، فالجيش فى نظره أساس الدولة وركنها الأول ، فعنى بأعادة تنظيمه و بمسألة قيادته ، فكان لكل فرقة أغا هو قائدها وجعل لأغا الأنكشارية حق التقدم على القواد الآخرين فهو يتلقى أوامره من الصدر الأعظم الذى جعل له السلطان القيادة العليا للجيش .

ونال عنصر الرقيق فى الجيش عناية خاصة ، فكما كتب إلى أوزون حسن يقول « إن دولتنا هى منزل الإسلام و إن سراج إمبراطوريتنا ليضىء من قلوب الكافرين » . كان السلطان محمد يشعر أن دولته أكبر دولة إسلامية ، ولذا فهو يعمل على تجديد شبابها وقوتها متبعاً سنة من مضى من السلاطين العثمانيين ، وذلك بأدخال عناصر جديده فيها ، هذه العناصر التى أثبتت كفايتها وجدارتها . لقد كان مؤمنا بمهمته الإسلامية والعالمية ، فهو يرى ضرورة الجهاد فى سبيل الله ، ويعتقد أن نظم الدولة يجب أن تخدم هذه الغاية النبيلة ، هذه الغاية التى ترمى إلى ضم العناصر المسيحية النشيطة إلى هذه الدولة الناهضة القوية .

عنى السلطان محمد الثانى بفرق المشاة عناية خاصة فى الوقت الذى ظلت فيه أور باتعتمد على نظام الفرسان كأهم فرقة فى جيوشها ، ومن المقطوع به أن الدول التى اهتمت بنظام المشاة فى ذلك الوقت كان لها قصب السبق

فى أوربا ، فتركيا من ناحية الشرق ، وأسبانيا من ناحية الغرب كانتا أقوى دول فى أوربا من الناحية الحربية ، فى النصف الثانى للقرن الخامس عشر وفى القرن السادس عشر . و إذا كان محمد الثانى قد اهتم بنظام الجيش ، فلقد كان أهم عوامل استقرار النظام فيه الانتظام فى دفع مرتباته ، فوجه السلطان عنايته بصفة خاصة إلى هذه الناحية ، بل واهتم بزيادتها من حين لآخر ، ولقد أعاد تنظيم الانكشارية ، وناط برئيسها أعمال البوليس بمدينة استامبول ، فلا عجب إذا أصبح جيش الفاتح الجيش المنصور الذى لا يقهر .

ونبغ فى عهد الفاتح عدد من القواد النابهين الذين عاونوه فى حروبه وكان لهم ضلع كبير فى انتصاراته ، وربما كان أهمهم محمود باشا وأحمد باشا ، وكل من هذين الرجلين تولى الوزارة والصدارة العظمى ، وكل منهما من أصل مسيحى ، وارتفع مكاناً علياً فى الدولة .

فأما محمود باشا فكان يطلق عليه ولى الدين محمود ، ولد من أبوين صربيين ، وكما تقول رواية من أب أغريقى وأم صربية ، وأتى به إلى أدرنة إلى بلاط السلطان مراد الثانى حيث تثقف ثقافة إسلامية ، ثم نبغ فى الدولة ، فعينه السلطان محمد الثانى صدراً أعظم فى سنة ١٥٤٣ بعد إعدام خليل باشا ، وكان يصحب السلطان فى كل غزواته ، ثم

كلفه السلطان بأخضاع الصرب ، وهو الذى قاد الحملة البحرية إلى طرابزون وسينوب، بينما كان السلطان نفسه يقود الحملة البرية. واشترك كذلك معه فى حروب المجر والبوسنه ، وحكم صنجق غاليبولى ، ولقد بنى هذا الرجل مسجداً ومدرسة فى استامبول ، وكان محبا للعلم يتذوق الأدب ويقول الشعر وله ديوان عدلى .

أما أحمد باشا كبيديق فأصله جندى انكشارى أوصلته كفايته ومقدرته إلى منصب القيادة ، وتم على يديه زوال الحكم السلجوقى نهائياً من آسيا الصغرى، وهزيمة أوزون حسن وإخضاع كيليكيا للأتراك. وكصدر أعظم تم على يديه فتح القرم ، وهو قائد الحملة الأيطالية التى استولت على تارنتو . ولقد اشترك ذلك الرجل فى الأحداث السياسية فى عهد السلطان بيايزيد الثانى ابن الفاتح مما أدى إلى اضطهاده .

* * *

وكما اهتم السلطان الفاتح بالجيش اهتم بالمسائل المالية فهى أساس مهم من أسس الدولة . فدقق فى تنظيم جمع الضرائب حتى تكون الحكومة مطمئنة إلى موارد دخلها ، وجعل السلطان محمد الثانى الأشراف على الأمور المالية للدفتردار ، وهى وظيفة ترجع إلى أصل فارسى ، وكان للدولة على عهد الفاتح دفتردار واحد لروميليا عين له

السلطان مساعداً يختص بالشئون المالية لآسيا الصغرى .

وعنى بالقضاء فهو من عمد الدولة كما عنى برجاله وتحديد وظائفهم ومناصبهم ، وجعل الاشراف عليه لقضاة العسكر، فكان لهم مركزهم فى الدولة فهم أعضاء فى الديوان ويتقدمون على الوزراء ، والسلطان الفاتح هو الذى أعطى المفتى لقب شيخ الإسلام فأصبح ذلك المركز وخاصته بعد عهد الفاتح من أعظم مراكز الدولة .

وكانت قوانين الدوله تختلف على حسب مللها وإن كان القانون الأساسى للدولة هو الشرع ، فهو قانون الحكومة الذى يحدد علاقات المسلمين ، وعلاقتهم بغيرهم من سكان الدولة ، فهو يحدد علاقة المسلمين بالذميين .

ولقد ترك للذميين حق اتباع كنائسهم الخاصة وقوانين مللهم المختلفة وتقاليدهم فيما يتعلق بمسائل الحكم المحلى ، وفيما يختص بمسائلهم الشخصية كالزواج والطلاق ، وكذا المسائل الدينية ، فهؤلاء الذميون تركوا ليتبعوا فى حياتهم نظمهم وتقاليدهم القومية ! فكان حكم الأتراك لهذه الرعية حكما غير مباشر ، ولم تشترك هذه الرعية فى حياة الدولة السياسية أو العلمية إلا بقدر صغير محدود ، ولكنها تمتعت بسلام وأمن لم تعرف مثلهما قبل الحكم التركى .

وراعى الأتراك فى القضاء العدالة التامة بين المسلمين والمسيحيين إلى حد أن أحدى الفتاوى قد صدرت تقول بأنه إذا قتل ألف من المسلمين مسيحيا واحدا مخلصا للسلطان دون حق يجب قتلهم ، ولقد فرض النظام العثمانى على المسيحيين ضريبة الرؤوس وضريبة الأراضى ولم تكن حالهم سيئة فى عهد الحكم العثمانى فى العصور الأولى ، بل كانت أمامهم الفرص للتعاون مع العثمانيين فى مناصبهم وحروبهم .

ونظراً لأن معظم رعايا السلطان الفاتح المسيحيين كانوا من الأرثوذكس يجب أن نشير هنا إلى أن فتح القسطنطينية لم يضعف من مركز الكنيسة الاغريقية بأى حال ، فلقد كان جورج سكولاريوس المسمى جناديوس والذى اختاره الفاتح بطريركا من أشد أعداء فكرة اتحاد الكنستين الشرقية والغربية ، بل لقد أعلن أن الخضوع للكنيسة الغربية اللاتينية نقمة على المسيحية ولعنة على الأمبراطورية وسيعقبه حتما انتهاء الدولة البيزنطية ، وفعلا تم ما تنبأ به .

كان السلطان الفاتح يرغب فى أن تستمر للكنيسة الأرثوذكسية قوتها ونظامها حتى يستطيع أن يسترضى الرعايا الأرثوذكس ، وأن يسهل لهم قبول الحكم الاسلامى الجديد . ولذا احتفظ السلطان بنظم الكنيسة العتيقة ، وأبقى لها الكثير من سيطرتها القديمة ، فطالب من

القساوسة الأرثوذكس الاجتماع لينتخبوا من بينهم بطريركا ، واعتمد من اختاروه وهو جناديوس ، واحتفل بانتخابه على النظام وبالأبهة التي كانت متبعة في مثل هذه الاحتفالات في عهد الأباطرة المسيحيين ، وقال له « لتكن بطريركاً على صداقتي في كل وقت وظرف ولتتمتع بكل الحقوق والامتيازات التي كانت لمن سبقك » ولكي يرفع من مركز البطريرك في الدولة الجديدة أهداه فرسا جميلا ، وجعل له حرسا خاصا من الانكشارية ، وصحبه باشاوات الدولة إلى المكان الذي أعدله . ثم اعترف بقوانين الكنيسة الأرثوذكسية ووضعها تحت حمايته ، وأمرها بأقامة حفلاتها الدينية كالمعتاد ، وجمعت واشتريت كل آثار القديسين ومخلفاتهم التي نهبت وسلمت إلى الكنائس والأديرة .

ولكن كان على الكنيسة الجديدة أن تخضع للسلطان كبقية النظم الأخرى الموجودة في الدولة ، ففي أي لحظة يستطيع السلطان عزل البطريرك أو كبار رجال الدين لاراد لقضائه ، ولكن من الناحية العملية ما كان السلطان يلجأ إلى اضطهاد الكنيسة أو رجالها بل كانوا دائما موضع حمايته وأكرامه . وكانت فكرة الاضطهاد الديني غير موجودة في ذهن الفاتح ، و إذن نعمت الكنيسة الأرثوذكسية في عهده وعهد خلفائه بهدوء واستقلال لم تنعم بمثله قبلا حتى في عهد كثير من

الأباطرة البيزنطيين أنفسهم ، وأخلص القسس الطاعة لذلك السيد العظيم .

قوى إذن مركز الكنيسة الأغريقية ، ورضى الأغريق عن ذلك الحكم الجديد الذى ترك لهم حرية المعتقد ومنحهم استقلالا دينيا غير منقوص ، ولقد أبقى الفاتح بعض الكنائس على حالها ، ولم يمنع المسيحيين من إقامة شعائر دينهم فيها وأصبح حى الفنار المطل على القرن الذهبى حلقة الاتصال بين القسطنطينية الإسلامية والقسطنطينية المسيحية .

وفى حى الفنار المظلم هذا وفى منازله القاتمة عاشت العائلات الأغريقية العظيمة مثل الكومنى والباليولوجى والدوكا ، عاشت كآثار ارستقراطية عظيمة عريقة ، عاشت لا أراضى لها ولا جاه إلا الأصل المجيد الذى تنتمى إليه .

لقد أصبحت البطريركية الأغريقية فى استامبول موئلا المسيحية ومركزا للقومية الاغريقية إلى أن حان الوقت لظهور الأغريق كأمة لها كيانها الخاص حين ضعفت الدولة العثمانية فى أوائل القرن التاسع عشر وأما القسطنطينية فلقد أصبحت استامبول فى فم الأتراك ، وأصبح هلال بيزنطة رمز القوة العثمانية . وعلماً لعظمتها .

وأما من حيث إعادة الحياة والهدوء إلى هذه المدينة العظيمة فلقد أمر السلطان محمد الفاتح حين دخلها بوقف القتل ، ولم يسمح باستباحتها بعد الأيام الثلاثة التى حددها والتى وعد بها جنوده ؛ وكان قد قتل من سكان المدينة العدد الكثير ، وشرد العدد الكثير ، وأسر العدد الكثير، ولكن ما كان الفاتح يعمل على خراب المدينة العظيمة مطلقا ، فهو رجل مقدر للجمال يتذوق الفن ، و إنما كان عليه أن يعيد لها مركزها القديم وعظمتها السابقة بنشر الأمن والطمأنينة فيها و إنشاء حياتها الاجتماعية والاقتصادية من جديد حتى تصبح صالحة لأن تكون عاصمة لأقوى دولة فى أوربا وآسيا معاً . فأعاد إصلاح أسوارها ، و بنى فيها حصناً منيعاً له سبعة أبراج ، وعمل على تشجيع من بقى سكانها على الاقامة فيها والاستقرار ، وطلب من كثير من العائلات التركية والأغريقية والألبانية سكناها ، وعاد إليها عدد كبير من سكانها الذين كانوا هربوا منها كما لجأ إليها عدد لا يستهان به من مهاجرى الأرمن والفرس والعرب .

ولقد اهتم السلطان الفاتح بانشاء المبانى العظيمة فى هذه المدينة ، فبنيت فيها دار السعادة العتيقة بقرب الجامع الذى كان أنشأه السلطان بايزيد خان الأول ، فكانت أول دار أنشأها السلاطين العثمانيون بعد فتح هذه المدينة ، وكذلك أمر السلطان الفاتح ببناء جامعه المشهور

باسمه ، وهو واقع على التل الرابع فى المدينة ، بناه المهندس خرستو دولاس على أنقاض كنيسة سان أبوتر ، وهذا الجامع يرى من البحر من مسافة بعيدة وله مأذنتان ، وقد أصابته الزلازل فيما بعد ، فأعاد بناءه السلطان مصطفى الثالث . ومن منشآت السلطان الأخرى جامع أبى أيوب الأنصارى ، وجامع الشيخ البخارى بجانب باب أدرنه ، وجامع الانكشارية (ارطه جامعى) . كما أنشأت السلطانه زوجته ستى خانوم جامعاً فى أدرنه ، وكذا بنته السلطانه عائشه أنشأت جامعاً فى نفس هذه المدينة التى كانت تعتبر ثانى مدن الدولة العثمانية . وأمر السلطان ببناء ثمان مدارس حول جامعه الكبير ، وشيد خلفها منازل للطلبة ومستشفى (دار الشفاء) وحمامات ، و بقربهـا خانات لنزول المسافرين ، كما أنشأ مدرسة للعلوم الشرعية ، و بالجامع مكتبة هى الأولى من نوعها فى استامبول ، و بقربها يوجد قبر عليمة هانم أم السلطان محمد الثانى ، ويقول رامبرتى (الذى كتب فى سنة ١٧٣٤) « بأن جامع السلطان له (إمارة) متصلة به يسمح لـكل شخص بالنزول فيها حيث يستضاف ثلاثة أيام ، فيعطى العسل والأرز واللحم والخبز وغرفة للنوم وكان يهواها الآلاف من الناس ، وبجانبها الحمامات والسبل الجميلة » .

وفى استامبول ميدان سمى باسم الفاتح ، وهو « فاتح ميدانى » وآق ميدان ، وهناك أيضاً محلة تنسب إليه فيها جامع ومدرسة ، ولها سوق خاصة شهيرة تعقد فيها ويجد الناس فيها ما يحتاجون إليه بالأسعار المناسبة .

ومن المساجد التى أنشئت فى العاصمة فى عهده كتشوق أيا صوفيا على بحر مرمره ، وكانت فى الأصل كنيسة القديس سرجيوس وباكوس وجامع زيرق على القرن الذهبى وكان كنيسة أيضاً وحول جامعاً وسمى على اسم ملا زيرق ، وكذلك جامع محمد باشا وجامع مراد باشا سميا باسم وزيرين للسلطان الفاتح .

وأما قصر السلطان ، فكان كبيراً وإن إمتاز بالبساطة ، فقد كان السلطان الفاتح ميالا إلى الوحدة والتفكير ، منصرفاً إلى دراسة فنون الحرب والأدب والفن ، وكان له حريمه الخاص ، وإن لم يكن معروفاً عنه حب الترف أو الانهماك فى الملذات والشهوات ، كان للحريم مقر خاص به ، وبه الغرف اللازمة لأبناء السلطانه وأمهاتهم السلطانات وكانت الكسوة تجرى على الحريم عدة فى الأعياد والمواسم والمناسبات . وبالقصر أماكن خاصة بالفتيات العذارى ، وكلهن من أصل رقيق ، جلبن عن طريق الشراء أو الأسر ، وكان عدد كبير من نساء الحريم

obeikandi.com

قد دربن لأعمال الخدمة والطهي وغيرها ، وكان السلطان عادة يصطفى لنفسه من الحريم الخاص من يشاء ، فيعطين عند ذلك حجرات منفصلة متميزة ، ومن لم يحظين باختيار السلطان يزوجهن السلطان عادة لوزرائه وقواده ، أو المقربين منه ، ويحل محلهن غيرهن ممن سرن فى نظام تعليمى معين . وكان ذلك النظام يعنى بتدريب الفتيات وتعليمهن إلى سن الخامسة والعشرين .

وأما العاصمة نفسها ، فلقد تغير وجهها بالفتح العثمانى ، فلقد تحولت كثير من الكنائس إلى مساجد ، وجعلت المساجد العظيمة التى قام بتشييدها السلطان العثمانى ووزراؤه للمدينة فخامة وبهاء فتانا ، وروعة أخاذة بمآذنها العالية ، وقبابها المستديرة ، كما كانت مقابر السلاطين العثمانيين الذين خلفوا الفاتح قطعاً رائعة من الفن ، وفى هذه المبانى الجديدة لم يندثر الفن البيزنطى بأى حال ، وكثرت الخانات والتكايا والزوايا ، ولم يمض نصف قرن على الفتح العثمانى إلا وشيدت القصور العظيمة التى تزينها الحدائق الجميلة ، وهاجر إلى المدينة تحت رعاية السلطان عدد كبير من عرب اسبانيا ويهودها الذين اضطهدتهم الكنيسة الكاثوليكية ، وأذاقتهم أصناف العذاب ، وقامت الأسواق العظيمة ، وعاد إلى المدينة رونقها وحركتها ، نتيجة للتسهيلات الكثيرة التى وضعها العثمانيون للمهاجرين والتجار .

ولقد بقى فى المدينة الخالدة (كما يقول رامبرتى الذى زارها وكتب عنها فى سنة ١٥٣٤) كثير من الآثار العظيمة القديمة التى ما زالت محتفظة برونقها فقناطر المياه وأقواس النصر والأعمدة ما برحت تشهد بماضى هذه المدينة المجيد. وقرر رامبرتى أيضاً أن هذه المدينة لا زالت متمتعة بجمالها وبهجتها، وهذا يدحض زعم هؤلاء الذين يقولون إن الأتراك خربوا المدينة، وقضوا على كثير من آيات الفن فيها، ولم ينته عهد الفاتح إلا والمدينة آهلة بالسكان عامرة بالأسواق والمصانع الحربية وغيرها، فلقد أحياها الفتح العثمانى، أصبح للمدينة حياة جديدة زاهرة بعد أن تفوق فيها العنصر التركى، وتركزت فيها الدولة الاسلامية الجديدة بقوتها وعظمتها.

ويدعى بعض المؤرخين الافرنج أن القسطنطينية فقدت مركزها باستيلاء العثمانيين عليها، وهذا غير صحيح، ولا ينطبق على الواقع بل بالعكس لقد عظم مركز القسطنطينية بعد أن احتلها العثمانيون، فبعد أن كانت عاصمة لدولة منهارة مضمحلة أصبحت عاصمة لأقوى دولة فى الشرق والغرب، لقد كانت القسطنطينية حين احتلتها العثمانيون عاصمة بدون ممتلكات، عاصمة بدون دولة حقيقية. ولذا لم تفقد القسطنطينية مركزها فى أوربا ولا بالنسبة لآسيا. بل قوى مركزها فى البلقان، ولم تفقد شرقيتها بأى حال

ولا صبغتها الارثوذكسية ، فلقد حافظ السلطان محمد الفاتح على هذه الصبغة التي كادت تندثر بالاتحاد مع الكنيسة الغربية لو طالت حياة الدولة البيزنطية قليلا .

لقد ظلت القسطنطينية ، استامبول ، عاصمة للشرق الأدنى غير منازعة لمدة تزيد على أربعة قرون ، منها يستمد حياته وقوته ونشاطه السياسي ، وينظر إليها كافة سكان الشرق الأدنى كمدينتهم العظيمة ، تهفو إليها قلوبهم ، وتحن إلى زيارتها والتمتع بجمالها ورونقها نفوسهم ، لم تفقد المدينة جمالها ولا عظمتها بل زاد هذا الجمال وهذه العظمة ، ولم تفقد مركزها الجغرافي أو الاستراتيجي أو الحربي أو السياسي ، بل بالعكس زادت هذه الأهمية ، فاستامبول ظلت مركز أوربيا سياسيا من الطراز الأول ، لا يقل مركزها عن مركزا عواصم الدول الكبرى الحديثة ، وظلت إلى الآن سيدة المضايق حتى بعد أن هجرها الاتراك إلى انقره ، وسيظل اسمها ما بقيت مقرونا باسم منشئها قسطنطين الأكبر وفاتحها محمد الثاني العظيم .

« « » »

ولم تكن ناحية السلطان الفاتح الثقافية أقل من النواحي السياسية أو الحربية أو التنظيمية .

obeikandl.com

كان السلطان الفاتح يحترم العلماء ورجال الدين ، وفاق فى ذلك كل من سبقه من السلاطين العثمانيين . لقد عمل على توطيد مركز العلماء ، وعلى إكرامهم ، وتوفير وسائل المعيشة والكرامة لهم ، كان الفاتح يعتبرهم بحق ركنا هاما من الأركان الأربعة الأساسية التى تقوم عليها دولته العظيمة . كان يعتقد أن القوة الحربية وحدها لا تبنى مجد أمة ولا تجعل لها استقرارا ، فهو رجل عظيم الثقافة مستنير محب للعلم ويتذوق الأدب ويغشى نواديه ويحفظ الشعر وكثيرا ما يتمثل به فى الظروف المختلفة وخاصة الشعر الفارسى ، وكان هو نفسه يحسن قول الشعر وله ديوان باللغة التركية مخطوط كتبه عماد من أشهر خطاطى إيران فى عهد السلطان سليم الأول ، ثم طبع فى برلين ولكنه ناقص كما يقول شهاب الدين سليمان بك (صاحب تاريخ يكى عثمانلى تاريخ أدبيات) وديوانه يسمى ديوان عونى وكله فى الغزل .

ومن شعره .

ساقيا مى صوك كه بركون لاله زار ألدن كيدر

ابر يشور فصل خزان باغ وبهار ألدن كيدر

obeikandi.com

عزه أولما دلبرا حسن وجماله قبل وفا
باقى قالما زكيمسه به نقش ونكار ألدن كيدر

* * *

جكرم ياره لدى خنجر جو وستمك
صبرمك جامه سنى درغرادى مقراض غمك
سجده كاه أيلر ايدى كعبه محراب كبى
كوبك ايجنده ملك كورسه نشان قدمك

* * *

(ياساقى الكأس أدر الراح قبل أن تذبل الخزامى
قبل حلول الخريف وانقضاء الربيع وزوال نضرة البستان
لاتمنعى الوصال أيتها الغانية المفتونة بحسنك وجمالك
فالزينة والحسن يوما زائلان

* * *

إن سيف دلالك قد نفذ بين ضلوعى
وإن سلاح تعذيبك قد قطع صدرى
ولو رأت الملائكة آثار قدميك
لسجدوا فيها كأنها كعبة المحراب)

obeikandi.com

كان الفاتح دائبا على تثقيف نفسه وزيادة معلوماته فكان له معلمون اختارهم من بين العلماء البارزين يقرأ عليهم الكتب المختلفة ويتلقى عنهم العلوم مثل خواجه زاده وابن الخطيب ، وكان كثير النظر فى الكتب والرسائل التى يصنفها علماء عصره يفحصها و يقارنها ، و ينتقدها ، وكانت له مكتبة خاصة عنى بجمعها واختيار كتبها وعين الملا لطفى أمينا لها مدة من الزمن .

وعنى الفاتح بالعلم والتعليم والمتعلمين والمعلمين ، فهو يعنى بالمتعلمين من حيث توفير سبل التعليم لهم والنفقه عليهم أثناء تعلمهم ، فمن بين هؤلاء المتعلمين من سيتولون وظائف التدريس والافتاء والتربية الأسلامية .

ولقد كلف السلطان الفاتح وزيره محمود باشا بأصلاح النظم التعليمية ، وكان ذلك الرجل خير من يقوم بهذه المهمة ، فتربية إنسانية شرقية وهو أديب وعالم وشاعر ظاهر ، فى عهد الفاتح انشئت المدارس العالية فى المدن الكبرى إلى جانب المكاتب التى عممت فى المدن والقرى ، وكان الفاتح يختار بنفسه العلماء الذين يقومون فيها بالتدريس ، وكان كثيرا ما يتباحث مع هؤلاء العلماء فيما يدرس و يسألهم عن أفاضل طلبتهم ليسرع إلى مكافأتهم وتعيينهم فى وظائف التدريس ، كما فعل

مع ملا خسرو وتلميذه ابن مغنيسيا . ولقد وضع لهذه المدارس البرامج المنظمة من مواد دينية ولغوية، من لغات عربية وفارسية ورياضة وأدب وفلك ، وكان يعطى للطلاب المتخرجين شهادات تسمح لهم بالقيام بالتدريس بعد هذه الدراسة المنظمة ، فيمنح الطالب لقب معيد ، ولكى يكون الطالب عالما (اماما) عليه أن ينبغ ويتعمق فى دراسة الشرع الشريف والفقه ، وعليه أن يجتاز امتحانات عديدة فى علم الكلام والتوحيد والأصول والفقه والشريعة الاسلامية قبلما يصل إلى هذه المرتبة .

وإذا استطاع الطالب بعد خمسة عشر عاما على الأقل النجاح اكتسب المجد الكبير والشرف والامتيازات الكثيرة ، فمن بين هؤلاء الطلاب والعلماء أساتذة المدارس العليا والقضاة الملات (ملارتبة عامية) والمفتون واستامبول افندى (قاضى الآستانة) وقضاة العسكر فى أوربا وآسيا والمفتى شيخ الاسلام ولقد وضع السلطان الفاتح نظاما ماليا (كادرا) خاصا لهؤلاء العلماء .

كان عصر الفاتح عصرا حافلا بدراسة الشريعة والفقه الأسلامى نادر المثال فى التاريخ العثمانى ، يدل على ذلك كثرة المؤلفين فى هذه الدراسات ، وكثرة الكتب التى وضعوها باللغة العربية . وكان العلماء

كثيرا ما يجتمعون فى حضرة السلطان و يتناقشون أمامه فى المسائل الفقهية واللغوية ، وكان كثيرا ما يشترك معهم ويحكم بينهم ، وقلده فى هذا وزراؤه وخاصة محمود باشا وسنان باشا الذى « كان من عادته احضار العلماء . . . واحضار الأطعمة اللطيفة » تتلوها المناقشات العلمية .

وكان للعلماء فى عصر الفاتح قوة روحية كبيرة ومقام سام لتقدير السلطان لهم ولمكانتهم عندالناس ، وكانوا كبيرى الاعتداد بكرامتهم فكانوا يحتجون إذا حدث تقصير فى حق واحد منهم ، وكانوا يهددون بالخروج من مملكة السلطان فكان لا يرد لهم طلب ولاشفاعة . وكان الفاتح يتبسط معهم إلى درجة يروى معها صاحب الشقائق النعمانية (ووالده عاصر الفاتح) فى ترجمة المولى فخر الدين العجمى . « ربما يمر السلطان محمد قدام بيتنا (بيت فخر الدين) ذاهبا إلى زيارة أبى أيوب الأنصارى . . . ويخرج أبى إلى الباب و يسلم عليه و يقدم له شربة ، و يقول السلطان محمد والله اشرب هذه الشربة و يناوله والدى بيده فيشرب منه ثم يسلم عليه و يذهب . »

كانت استامبول فى عهد الفاتح موئلا للعلماء من كل البقاع الاسلامية فلقد كان السلطان يستقدمهم ويغالى فى اكرامهم وفادتهم ويسهل لهم كل وسائل الاقامة ، فعل ذلك مع القوشجى الذى أهداه رسالة فى علم الحساب المسماه المحمديه ومع سراج الدين الخطيب وقطب الدين العجمى والشيروانى وغيرهم .

وأهم المدارس التى أنشأها الفاتح المدارس الثمان حول جامعه فى استامبول ومدرسة أيا صوفيا ومدرسة أبى أيوب الانصارى ، ونحن نعرف أن الفاتح حول ثمانى كنائس فى استامبول إلى جوامع وألحق بكل منها مدرسة ، كما أنشأ مدارس فى بعض المدن المهمة الكبرى

وكان العلماء البارزون فى الفقه والشريعة فى عهد الفاتح كثيرين ، وقد ذكرهم وترجم لهم وعدد مناقبهم المولى أحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده فى كتابه الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية .

وعلى رأس هؤلاء العلماء ملا خسرو محمد بن قراموز الرومى المتوفى سنة ١٤٨٠ م وهو رومى اعتنق الاسلام ، وتتلمذ على الشيخ حيدر الهروى الذى كان مفتياً فى البلاد الرومية ، وعين مدرساً فى مدرسة أدرنة المسماه شاه ملك ، و بعد فتح القسطنطينية عين قاضياً لاستامبول وللعسكر المنصور فى نفس الوقت الذى قام فيه بالتدريس فى مدرسة

أيا صوفيا ، وكان السلطان محمد الثانى يحبه و يحترمه و يفخر بوجوده فى دولته ، ووكل إليه تقنين الشرع الاسلامى ، ولقد تولى ذلك الشيخ الجليل وظيفة الافتاء ، ولقد كتب عنه السيوطى وترجم له ابن العماد فى شذرات الذهب ، ولهذا العالم مؤلفات كثيرة فى الشريعة الاسلامية والفقه منها مرقات الأصول مع مرآة الوصول ، وغرر الأحكام فى شرح درر الحكام والرسالة الولائية وكاشفات الشبهات الملائية وجملة رسالات أخرى مثل رسالة فى الاستخلاف للخطبة ، وأخرى فى أسرار الفاتحة .

ومنهم الشيخ أحمد بن اسماعيل الكورانى . تلقى تعاليمه فى القاهرة حيث كان موضع تقدير الأمير جقمق ، وكان السلطان الغازى مراد الثانى يكرمه إكراما شديدا ، وعينه مدرساً لولده محمد ، ولقد عينه السلطان الفاتح مساعدا لقاضى عسكر ، ثم عينه قاضيا فى مدينة بورصه ثم ولى الافتاء فى آخر الامر ، ومات بعد عهد تلميذه العظيم ، ولعظم قدره فى الدولة حضر السلطان بايزيد الثانى صلاة الجنازة عليه فى سنة ٨٩٣ ﻫ . وقد ترجم له السخاوى فى ضوء اللامع . وله غايات الامانى والبدور اللاوامع ، ولوامع العرز فى شرح فوائد الدرر ، وكشف الاسرار عن قرآت اللائمة الاخيار ، وغايات الزمان فى تفسير الكلام الربانى

ومنهم الشاعر والفقيه جلال زاده خضر بك كتب النونية فى العقائد ومنهم مصلح الدين البروسوى كتب نقدا لتهافت الفلاسفة ورسالة فى الحركة ومنهم خطيب زاده بن تاج الدين ، وملا خيالى ، ومصطفى القسطلانى ، وعلاء الدين عربى ، وعلاء قوشجى الذى كتب الرسالة المفردية وعقود الجوهر والمعجز فى الطب ، ومنهم على بن مجد الدين شاهرودى الهروى ، وهو من أحفاد الفخر الرازى ومن تصانيفه شرح الارشارد وشرح المصباح فى النحو ، وشرح آداب البحث وشرح العقيدة الروحية لابن سينا وله تآليف أخرى بالفارسية . ومنهم ملا لطفى وهو صاحب رسالة فى تاريخ الحكمة ، وعبد الرحمن بن مؤيد الذى يقال أن له من المؤلفات سبعة آلاف مجلد ! ، ومنهم تكسارى وتاجى بك زاده وجعفر ، وسعدى شلبى ، وعلى جمالى ، وابن كمال ، والمفسر أبو السعود الذى عرف باسم كمال باشا زاده .

ولابن كمال آثار ومؤلفات فى الفقه والتفسير وعلم الكلام والحكمة والتاريخ والمعانى ، وكان ينظم الشعر باللغتين الفارسية والتركية . وأما أبو السعود فكان قاضياً ثم تولى المشيخة الاسلامية فأصبح شيخاً للاسلام ، ويقال أنه لما شاع خبر وفاته فى الحرمين صليت عليه هناك صلاة الغائب ؛ ويروى أنه كان يصدر فى اليوم الواحد الف فتوى ؛

وتفسيره للقرآن مشهور وشرحه لبردة البوصيرى يدل على قوة فى اللغة العربية واطلاع واسع فى الأدب العربى ، وهو يتبع فى أسلوبه السجع ويهتم بالصنعة اللفظية .

ومنهم محمد بن قطب الأزنيقى صاحب التعبير المنيف والتأويل الشريف ، وشرح الأوراد ورسالة فى المعرفة وفتح مفتاح الغيب ، ولقد جمع هذا الرجل كما يقول ابن العماد صاحب شذرات الذهب بين الشريعة والطريقة والحقيقة . وظهر فى الفلسفة كمال الدين مسعود الشروانى الرومى له رسالة فى الابحاث الثلاثة المتعلقة بالكلام والمنطق والحكمة وله شرح السمرقندية ، وشرح المواقف . . . ومنهم يوسف بن حسن القرمسطى كتب رسالة فى المواقف ، والوجيز فى أصول الدين ، وزبدة الوصول إلى علم الأصول ، ومنهم حاجى شابى الفنارى صاحب رسالة على المبدأ الأول وشرح المواقف . وظهر فى اللغة السيد محمد بن السيد حسن بن على وله جامع اللغة ، ولطف الله شلبي وهو تلميذ التفتازانى له متصرفات الأسماء ومقدمات العلماء .

ومن أجل العلماء قدراً فى عهد الفاتح ممن توسلوا إلى الله بالتقوى صادقين الشيخ آق شمس الدين ، ولقد دعاه السلطان إلى صحبته عند حصاره مدينة القسطنطينية ، ولقد بشر ذلك الشيخ أحمد باشا ، وهو

أخذ وزراء السلطان بالنصر وعين له وقت الفتح كما يروى صاحب الشقائق النعمانية ، وحمل الوزير هذه البشرى إلى السلطان ، فلما قرب الوقت الموعود ولم تفتح المدينة خشى الوزير غضب السلطان ، فأسرع إلى الشيخ فوجده يبكى ويتضرع إلى الله ويسأله أن يتم نصره ، ثم أنزل الله نصره ودخل الأتراك المدينة فى الوقت الذى عينه الشيخ فقال السلطان ما فرحت بهذا الفتح مثل فرحى بوجود مثل هذا الرجل فى زمانى . .

وكان السلطان يرسل إليه ويقربه ، ويروى أنه بعد إتمام فتح المدينة العظيمة التمس من هذا الشيخ الموهوب أن يريه قبر أبى أيوب الأنصارى فتوجه الشيخ ساعة وكشف عن موضع القبر فبنى السلطان عليه القبة والجامع .

هذه القصص مهما كان نصيبها من الصحة إن دلت على شىء فهى تدل على مقدار تعلق السلطان برجال الدين وأولياء الله الصالحين .

وكان للسلطان محمد الفاتح روح اجتماعى طيب سمح فله من أعمال الكرم والجود والبر الشىء الكثير ، فلقد عين للأرامل والأيتام فى كل سنة النفقة والكسوة ما يفى بحاجتهم و بنى المستشفيات والسبل والحمامات المجانية .

وكان الفاتح يعلق أهمية كبيرة على كشف قبر أبى أيوب الانصارى وكذا كل الأتراك لما لصاحبه من قدر جليل وسابقة فى الاسلام ونصرة للرسول صلى الله عليه وسلم ، وكان البيزنطيون أنفسهم يحترمون قبره ويستسقون به فلم يكن قبره مجهولا عندهم ، ولقد أصبح جامع أبى أيوب الأنصارى أقدس جامع فى الاستانة وأصبحت الدولة العثمانية تقيم فيه حفلة السيف وهى حفلة تقام كلما ارتقى سلطان العرش فيذهب السلطان الجديد إلى هذا الجامع ، ويقلد سيف عمر بن الخطاب فى حفلة عظيمة تشبه حفلة التتويج فى الغرب الأوربى ، وعندما يتقلد السلطان السيف يصلى ركعتين فى ضريح أبى أيوب الأنصارى .

وأما من ناحية تذوق الأدب والفن ، فلقد كان الفاتح مغرماً بالشعر يحفظه ويقوله ويستمع إليه ويغشى نواديه ، ويكرم أهله أياً كان موطنهم وجنسيتهم فكان يرسل بالهدايا والمنح إلى شعراء الهند وخاصة إلى الشاعر خوجايجهان ، وقامت فى عهده مدارس للشعر الغنائى فى بروسة وقسطمونى ، وكان وزراؤه يحاكون سيدهم فى هذه الناحية ويعضدون الحركة العلمية والأدبية .

وكان أربعة منهم ينظمون الشعر ، ومنهم أحمد باشا الذى وضع أسلوب الشعر الغزلى فى اللغة التركية ، ومنهم خضر باى زاده سنان باشا

صاحب تضرع نامه وجزرى قاسم الذى لقب فى مجلس الأدب بصافى وقرمانى محمد باشا ولقب بنشانى وأما السلطان نفسه فلقب بعونى .

وفى عهده نظم الشاعر حمدى قصة ليلى والمجنون باللغة التركية تقليداً للملاجانى ، كما نظم قصة يوسف وزليخا ، وأما الشهدى الشاعر فلقد حاول أن يكتب التاريخ العثمانى نظماً على طريقة الملاحم تقليداً للفردوى فى شاهنامته ، لكنه توفى بعد أن نظم أربعة آلاف بيت ، ومنهم جلشنى الذى كتب عشرين ألف بيت على طراز مثنوى . ومن الشعراء آلهى الذى ألف زاد المشتاقين ونتائج الأرواح . ومن السيدات الشاعرات مهرى وهى من بلدة أماسيا ، وزينب وهى من قسطمونى ، ونالت هاتان الشاعرتان عطف السلطان ، وهنا يجب ألا ننسى أن الأمير جم ، فلقد كان شاعراً عظيم الشان يحسن تذوق الفن .

وأما تقدير السلطان لنواحى الفن فيظهر فى ولعه بالموسيقى ، ويبدو واضحاً فى استدعائه لبلينى إلى استامبول حيث أكرمه إكراماً عظيما وكان يقدره ويعجب به ويتابع عمله ويتبسط معه . ولقد قام بلينى برسم صور للسلطان الفاتح منها صورة كبيرة لا تزال موجودة ، ورسم صورة أخرى منها صورة كبيرة يبين فيها استقبال سفير فى الاستانة ، وعمل بلينى للسلطان مداليات على بعضها صورة الفاتح كتب حولها

باللاتينية ما ترجمته « السلطان محمد الثانى الامبراطور المظيم » وعلى ظهرها ثلاثة تيجان تمثل الأمبراطوريات التى يحكمها السلطان . ولقد أهداه الفاتح عند انتهائه من مهمته قلادة ذهبية وعطية سنوية ومنحه رتبة البكوية .

لقد كان عصر الفاتح عصراً زاخراً بالفتوحات ، عصر تنظيم وبناء ، عصراً ناضراً برجال العلم والدين والأدب والشعر .

ويقدر المسلمون فى كافة أقطار الأرض أعمال الفاتح ويرون فيه بطلا من أبطال الاسلام وزعيماً من زعمائه . وأما الأتراك فلقد تعلقوا بسلطانهم العظيم ، فهم يفخرون به ويمجدون أعماله العظيمة ويجاون ذكراه

هركوشه سنده دهرك نام بقا مدارك
شامسته در دينلسه عالم سنك مزارك
بيت خدايه قوتمش جاهك مطاع إسلام
طورمش باشكده بكار برقوم تربه دارك
ميدان حربى فيلدك سن تختكاه شوكت
توحيد إيدى مرامك إسلام إيله انامى
بر مجمع سياست بولدك عقول جسبان
دوران إيدى رقيبك الله إيدى نكارك

(إن إسمك الخالد لباق فى كل ركن من أركان العالم
وجدير أن يقال أن العالم بأسره قبرك
وإن ضريحك المشيد فى بيت الله مطاع للاسلام
ولقد وقف القوم كلهم (الأتراك) يحرسون ضريحك
جعلت ميدان الحرب مقراً لعرشك العظيم
كان غرضك توحيد الأنام بالاسلام
واجتمع لهذا الغرض علمك ومقدرتك
لبثت فى الدهر لحظة وكل لحظة أصبحت عهداً
والدهر كان رقيبك والله كان حبيبك [(١)]

---

(١) الشاعر التركى المشهور عبد الحق حامد . على قبر الفاتح .

obeikandl.com